السَّدَنة

دراسة انثروبولوجيا في العتبة الكاظمية المقدسة

The custodian

An anthropological study in the holy Kadhimiya shrine

أ.د علي زيدان خلف
الباحث محمد حسين عبد
Prof. Dr. Ali Zaidan Khalaf
Mohamed Hussein Abdel
الجامعة المستنصرية - كلية الآداب
قسم الانثروبولوجيا والاجتماع

الملخص

أدرك علماء الدين في جميع أنحاء العالم منذ فترة طويلة ما أطلق عليه الفيلسوف الأمريكي وعلم النفس ويليام جيمس «أنواع الخبرة الدينية»، منذ منتصف القرن التاسع عشر، كانت إحدى أهم مساهمات علماء الأنثروبولوجيا وأهمها هي توسيع نطاقها، دراسة تلك الأصناف خارج العقائد والصلوات الرسمية للمؤسسات الدينية القائمة لتشمل العادات ذات الصلة، بغض النظر عن الزمان والمكان وأين تمارس هذه الممارسات وما إذا كان يتم الاحتفال بها أو قمعها أو اعتبارها أمراً مفروغاً منه أنثروبولوجيا الدين هي دراسة، على حد تعبير عالم الأنثروبولوجيا الإنجليزية إدوارد إيفانز بريتشارد نظريات الدين البدائي، «كيف تؤثر المعتقدات والممارسات الدينية في أي مجتمع على عقول ومشاعر وحياة وعلاقات أعضائها، كما عمد عمل عدداً من علماء الانثروبولوجيا على دراسة وبيان تلك الممارسات الدينية المحلية (التي توصف بالشعبية في كثير من الاحيان) بوصفها المميزة والخاصة لثقافة ما دون غيرها من الثقافات او انها صفة لمجموعة من الناس دون غيرهم من البشريات او الشعوب، كأن تكون عند النوير في افريقيا، او هنود الانويت في الدائرة القطبية الشمالية، او الهندوس في اسيا.

كلمات مفاتيح: السَّادَن، الكليدار، المقدس

Abstract

Religious scholars around the world have long recognized what the American philosopher and psychologist William James called “types of religious experience.” Since the mid-nineteenth century، one of the most significant and important contributions of anthropologists has been to broaden their scope، examining those categories outside the formal creeds and prayers of the institutions Existing religious to include relevant customs، regardless of when، where، and where these practices are practiced and whether they are celebrated، suppressed، or taken for granted، How do religious beliefs and practices in any society affect the minds، feelings، lives، and relationships of its members? A number of anthropologists have also deliberately worked on studying and explaining those local religious practices (which are often described as popular) as distinctive and. For a group of people without other human beings or peoples، such as the Nuer in Africa، the Inuit Indians in the Arctic Circle، or the Hindus in Asia.

Keywords: the custodian، the cledar، the sacred

المقدمة

شهدت الأنثروبولوجيا مراحل تطور في القرن العشرين، لتصبح كياناً أكاديمياً ومهنة متخصّصة عند كثير من العلماء والفلاسفة والباحثين، فعلى الرغم من أنّ الفكر الأنثروبولوجي قد بقي خلال العقدين الأوليين من القرن العشرين، متأثّراً إلى حدّ بعيد، بالنظريات التي سادت وتبلورت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، فإنّه سرعان ما تغيّر وتحوّل إلى منطلقات جديدة، نتج عنها اتّجاهات متعدّدة إزاء دراسة الإنسان وثقافته، سواء ما كان منها نظرياً أو منهجياً، كما ان الاتجاه العلمي نشط في القرن التاسع عشر وتبلور في مجالات متعدّدة، والانثروبولوجيا كحقل متخصص يعد تطوراً حديثاً في تاريخ الفكر الإنساني، لاهتماماته المتداخلة والمتعددة والزوايا المختلفة التي يتعامل بها مع قضايا الإنسان إذ يخوض ويتعمق بكل ما يتعلق بسلوكيات الانسان وصداها في بناء حياة ذلك الانسان وكيفية التناغم والتعامل مع اطر الحياة المختلفة، وان الانثروبولوجيا لم تقتصر على دراسة الوحدات البنائية الصغيرة بما فيها من بناءات تعود الى حياة الانسان، وانما اتسعت مدياتها لتشمل مضامين اخرى في حياة الانسان تتلاءم وتتواكب مع كل ما هو حديث ومتطور، اذ اخذت تتعمق في دقائق واجزاء لم يتم التنبه عليها سابقاً فيما يتعلق بشكل الحياة بالإنسان مادياً وثقافياً وكيفية بلورة صور تعامل الانسان مع الطبيعة وسلوكيات الافراد الاخرى، وبرزت الانثروبولوجيا بصورٍ اخرى وفروع اخذت تغور في ثنايا حياة الانسان وتوضح واقع معيشة الافراد في مجتمعاتهم وكيفية التناغم معها، ولا سيّما دراسة البناء الاجتماعي لمنطقة التي تُعد شكل من اشكال التعايش التي تظهر على مستوى القرابة والاسرة والاصدقاء.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

المبحث الأول: عناصر الدراسة

اولاً موضوع الدراسة

«يتخذ علماء الأنثروبولوجيا مقاربة شاملة لدراسة الإنسان، إذ يفترضون أنه لا يوجد فهم كامل من غير دراسة النطاق الكامل للسلوك البشري، وقد يركز علماء الأنثروبولوجيا دراساتهم على مجتمع معين أو جانب معين من الكائن البشري، لكنهم يضعون نتائجهم في منظور نظري واسع يسعى إلى تضمين كل التجارب البشرية، وينعكس هذا النهج الكلي في الاهتمام بالتنوع الواسع وفي نهج شامل لدراسة السلوك الإنساني».

يجب على الباحث الأكاديمي في البحوث الاجتماعية والإنسانية، من وضع منهجية علمية مناسبة تتوافق وموضوعات البحث المُعْنى بدراسته، ويُرسَم اقتران المنهج بالموضوع بخطوات غايتها تحقيق أهداف البحث واكتشاف مجموعة الحقائق ذات الصلة بموضوع الدراسة.

يتجه هذا الفصل نحو التعريف بموضوع الدراسة وبيان التساؤلات التي تكون بمثابة الأهداف التي ترمي الدراسة إلى تحقيقها وبيان أهمية الموضوع ومجالاته الثلاثة (الزماني والمكاني والبشري) بمبحث اول، ومن ثم التوجه في المبحث الثاني نحو التعريف بالمفهومات الأساسية للموضوع.

لأجل ذلك كلّه فقد ارتأت الدراسة ضرورة بسط موضوع (الكليدار دراسة انثروبولوجيا في العتبة الكاظمية المقدسة) متقصّين في ذلك مجمل الحيثيّات الإبستيمولوجيّة، ففهم الموضوع في سياقه الأنثروبولوجي يعتبر، من وجهة نظر الباحث، أمراً ضروريّاً ومدخلاً رئيساً، يرتكز موضوع الدراسة إلى مجموعة تساؤلات يمكن عدها أهدافاً غايتها تقديم إجابة أولية استهلالية أكاديمية هي:

ثانياً: أهمية الدراسة :

تسعى الدراسة إلى تسليط الضوء على موضوع لم يسبق ان تمت دراسته في الانثروبولوجيا، أن تم بحثه ومعالجته أنثروبولوجيا، ولذا نبعت أهميته كونه محاولة علمية لرفد المكتبة الأنثروبولوجية والاجتماعية، ببحث من هذا النوع، مؤكدا انه قابل لتطويره في دراسات قادمة.

الدراسة تأتي لتقدم مادة وصفية اثنوغرافية لجماعة السدنة المتواجدين في العتبة الكاظمية اذ مازالت تلك الجماعة ان تمثل بروزاً فريداً في الدراسات، كذلك البحث عن الخصائص المشتركة والميزات التي ينفرد فيها عن غيرهم من الجماعات والظائف التي تُمارس او يمارسها مجتمع الدراسة.

كما تظهر الأهمية الآخرى للدراسة بأنها تعمل على بيان العلاقات التي تربط السدنة مجال الموضوع مع الزائرين من عموم الناس الوافدين الى المقام الشريف كما تتجه الأهمية الآخرى هي قلة الخوض في سبر اغوار هكذا موضوعات في مجال الانثروبولوجيا والتي ستعمل على رفد المكتبة الأكاديمية بالمعلومات والحقائق العلمية عن مجتمع الدراسة.

ثالثاً: أهداف الدراسة :

معرفة تأثير النظم العقائدية من حيث التمثيل وكيفية تفاعل المكونات الثقافية فيما بينها من حيث تشربها أو امتصاصها للقيم والعادات والتقاليد التي فرضها على تلك المكونات نظامُها العقائدي.

التعرف على استمرار وجود بعض العناصر الثقافية المتصلة بموضوع هذه الدراسة على مر الزمان في المجتمع العراقي ومنها وجود بعض اوجه التشابه بين بعض هذه العناصر الثقافية، فالشكوى الى ما يعتقد به مجتمع الدراسة وطلب قضاء الحاجات، فضلاً عن إرسال الرسائل الى الإمامين الجوادين (عليهم السلام) كانت كلها امور تُمارس من قبل مجتمع الدراسة على مر الزمان والاجيال وذلك بالإعتقاد بأن الإمامين يسمعون

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الكلام ويلبون احتياجات المحتاجين.

رابعاً: مجالات الدراسة

١- المجال المكاني

يتمثل المجال المكاني للدراسة في العتبة الكاظمية المقدسة، اذ إن حيثيات الدراسة جميعها تدور في هذا المكان والتي تُجرى فيها مقابلات وملاحظات وكل ما يخص عملية تدوين البيانات الميدانية، فكل دراسة انثربولوجية يكون فيها ميدان الدراسة او الحيز المكاني للدراسة على قدر كبير من الأهمية والاعتقاد به من قبل الناس لما للمكان من اهمية قدسية واضحة.

٢- المجال البشري

يمكن تحديد المجال البشري على أساس الفاعلين الذين شملتهم الدراسة، والذين يُعدون العنصر الاساسي في الدراسات الانثروبولوجية ولاسيما في هذا الموضوع، والذي من خلاله يشكلون صورة العلاقات والنشاطات التي تقوم بها الجماعة، فلا يمكن تصور بناء لمجتمع من غير وجود عناصر فاعلين، الذين تتم من خلالهم الممارسة سواء كانوا ذكوراً أم اناثاً.

خامساً: مفهومات الدراسة

الأول: سَّادِنُ

السَّادِنُ هو اسم علم مذكر من أصل عربي، ومعناه هو خادم المعبد ولاسيما الكعبة المشرفة، من الفعل سدن خدم الكعبة[١].

السَّادِنُ: خادم الكعبة، والجمع السَّدَنَةُ، وقد سَدَنَ يَسْدُنُ، بالضم، سَدْناً وسَدَانَةً، وكانت السَّدَانَةُ واللِّواءِ لبني عبد الدار في الجاهلية فأَقرّها النبي، صلى الله عليه وسلم، لهم في الإسلام، قال ابن بري: الفرق بين السَّادِنِ والحاجب أَن الحاجب يَحْجُبُ وإِذْنُه لغيره، والسَّادِنُ يحجب وإذنه لنفسه. والسَّدْنُ، والسِّدانة:

(١) جامعة السلطان قابوس، معجم أسماء العرب، ضمن سلسلة «موسوعة السلطان قابوس للأسماء العربية»، ط، الثانية، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ١٩٩١، ص٣٤.

الحِجابة، سَدَنه يَسْدُنه، والسَّدَنة: حُجَّاب البيت وقَوَمةُ، الأَصنام في الجاهلية، وهو الأَصل، وذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، سِدَانَة الكعبة وسِقَاية الحاجِّ في الحديث. قال أَبو عبيد: سِدَانَة الكعبة خِدْمَتُها وتَوَلِّي أَمرها وفتح بابها وإِغلاقُه، يقال منه: سَدَنْتُ أَسْدُنُ سَدَانة. ورجل سَادِنٌ من قوم سَدَنة وهم الخَدَم[1].

السدانة: هي خدمة المعبد والقيام بشؤونه ولوازمه وتحرّي كلاءته عن أي عادية، وقد اتّخذت العرب بيوتاً تعظّمها كتعظيم الكعبة وجعلوا لها حجاباً وسدنة، وكانوا يهدون إليها كما يهدون إلى الكعبة، ويطوفون كما يطوفون بالكعبة، وينحرون بها مثلها. كلّ ذلك مع معرفتهم فضل البيت الحرام والكعبة المشرفة ; لأنّها بناء الخليل[2] .

ثانياً: المقدس

تشير لفظة المقدس في اللغة العربية الى الطاهر والمنزه وجوهر هذه المفردة يدل في اللغة العربية على (الطهر، القدوس، او القدوس، من اسماء الله تعالى الحسنى وهو الطاهر او المبارك) [3].

قال الجوهري «القدس» اسم ومصدر والتقديس التطهير، وتقدس اي تطهر، والأرض المقدسة المطهرة.

قال ابن منظور «التقديس: تنزيه لله عز وجل، ويقال القدوس: فعول من القدس، وهو الطهارة، والتقديس البركة، والارض المقدسة الشام، وبيت المقدس من ذلك أيضا، وهو يخفف ويثقل، وبالنسبة إليه مقدسي، ومقدسي[4].

(١) محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري، معجم لسان العرب، دار المعارف، المجلد السادس، ص٤٣٤.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢: ٢٤٣، السيرة النبوية لابن هشام ١: ٥٤، تفسير ابن كثير ٤: ٢٧١.

(٣) احمد بن محمد المقرئ، المصباح في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان،١٩٨٧،ص١٨٨.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مجلد،٧،ص٢٦٨.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

المقدس قد يختلف من دين إلى دين، فالمقدس في الاديان الكتابية ليس هو المقدس في الاديان الوضعية من حيث المصدر، فالأول مصدره الله، والثاني مصدره البشر، وإن كان الكل يهدف إلى تطهير الإنسان وتلبية حاجاته الروحية والاجتماعية، والانسان المادي في العصر الحديث اليرى مما يراه الانسان المتدين، فهو لا يؤمن إلا بما يراه ويدركه بأحد حواسه، فقد سلخ القداسة عن كل شيء، سلخها عن الانسان وعن الطبيعة، ولم يعد يقدس إلا المادة، وبذلك يكون قد أزل القداسة الدينية عن الانسان والطبيعة، وراح يدافع عن مقدساته الجديدة، معتبرا القداسة الدينية ضربا من الخرافة والزيف[١].

لقد ظهر مفهوم المقدس في الفكر الغربي عند أواخر القرن التاسع عشر بشكل بارز يف الدراسة الحديثة للدين كتجربة إنسانية وليس كلاهوت، وذلك في صدد دراسة تعريف الدين ونشأته وتاريخ الإنسان، وكان القصد إيجاد مصطلح يمكن أن تشتق منه كل الافعال المرتبطة بعامل الغيب، لتشمل البوذية التي لا تستند الى الالوهية أو تلك التي تتصل بأعمال السحر والشعوذة، عوضاً عن مفهوم الالوهية الذي زُعم أنه غير ملائم لدراسة الدين كتجربة انسانية تشمل جميع الاديان والمعتقدات والأسرار[٢].

رابعاً: المرقد

المرقد لغوياً مأخوذ من (رَقَدَ) وهومن باب (نصر) والمرقد بوزن المذهب،

(١) الحاج القدميري، مفهوم المقدس في الاديان السماوية والوضعية، المجلة العربية للنشر العلمي، العدد ٢٧،المغرب، ٢٠٢١، ص٥٧٧.

(٢) عبد الناصر سلطان محسن سلام، مفهوم المُقدس والمدنس عند ميرسيا الياد، دراسة نقدية تقييمية من وجهة نظر اسلامية، كلية المعارف والوحي والعلوم الانسانية، ماليزيا، ٢٠١٢، ص٢.

المضجع وأرقده أنامه والمرقد دواء يرقد من يشربه[١].

يشير الضريح لغوياً إلى الضرح التنحية والدفع وبابه قطع فهو شيء مضطرح أي مرمي في ناحية وهو يعني الشق وسط القبر وقد ضرح القبر من باب قطع أيضاً إذا حفره[٢].

وتشير كلمة المقام من قام يقوم قياماً وأقام الشيء أي أدامه والمقامة بالضم الإقامة، وبالفتح المجلس والجماعة، والمقام بالضم كقوله حسنت مستقراً ومقاماً أي الموضع[٣].

إنّ المرقد والضريح تشير الى القبر وهو مثوى الإنسان بعد الموت ويشير الى وجود رفات أنسان في هذه البقعة من الأرض، ويعرف المقام (shrine) في المصطلح العلمي بانه أحد المسميات التي تطلق على القبور التي ترجع إلى أصحاب الحظوة من القوم وقد جاء في صبح الأعشى للقلقشندي يقول أصل المقام في اللغة هو موضع القيام، وقد أرجع بعضهم كلمة مقام الى أصل يوناني (mokamo) ومعناه الغير في العربية[٤].

والمقام هو مبنى أو قبر أو مكان مدفون فيه رفات مقدس وقد يعني المقام عند البعض شجرة أو جرة أو حتى كومة من الأشجار وتقدس للاعتقاد بأنها مسكن لروح وتحفظ في المقام ذي البناء المشيد أشياء مقدسة أو تقام حوله الصلوات والاحتفالات الدينية وتقرب له القرابين[٥].

يعرف الضريح وجمعهُ أضرحة بكونها أماكن مقدسة غالباَ ما تكون بؤرة لتجمع أو لممارسات التكريم ويظهر الاعتقاد في الأضرحة بعض جوانب البناء الاجتماعي

(١) ابو بكر الرازي، مصدر سابق، ص٢٥٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص٥٥٧ .
(٤) علي ثويني، معجم عماره الشعوب الإسلامية، الطبعة الاولى، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٥ ص٧١٦-٧١٧ .
(٥) لوسي مير، مصدر سابق، ص٤١٤ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

المحلي والإقليمي فيسهم في تعيين حدود الجماعة المحلية أو يعمل في ظروف معينة على تحاشي تلك الفروق المحلية لصالح تحالف أكثر شمولاً حتى وإنّ كان مؤقتا أحياناً.[١]

إنّ المرقد يتمتع بميزة البناء المعماري لاحتوائه على مبانٍ ذات طابع إنساني وثقافي تكون في خدمه العامة من الزوار والأماكن المحيطة بالمرقد فضلا عن كونها بيوت الله تقام بها الشعائر وهي ذات صفة روحية واجبة التقديس ،واهم ما يميز البناء المعماري القبة والمنارة ،إضافة الى أن عمارتها جاءت بأشكال محورية ومتناظرة تنحى للرمزية وتغالي في معالجتها[٢].

المبحث الثاني: ميدان الدراسة

يسعى الباحثون الاثنوجرافيون الى ان يقدموا في نهاية عملهم وصفاً لما شاهدوه، وسمعوه، وعايشوه في الميدان ولكنا نجد ان الباحثين المختلفين بل ونفس الباحث في مختلف مراحل حياته يحولون تلك الخبرات والملاحظات الى نصوص مكتوبة بطرق شتى، فبعضهم يغالي في الانغماس في الانشطة المحلية وفي معايشة الآخرين حياتهم، فيؤجلون عامدين الانشغال بمهمة اعداد تسجيل مدون لتلك الاحداث والخبرات، وفي الميدان يقرر الباحث لنفسه اين يذهب وماذا يشاهد وعما يطرح اسئلته، وماذا يقول...الخ.

وبهذا يلتزم الأثنوجرافيون بالنزول إلى الميدان الحقيقي الذي ينوون دراسته وان يقتربوا ما أمكنهم من أنشطة الآخرين وخبراتهم اليومية ويتطلب هذا الاقتراب في حده الأدنى درجة من القرب الجسدي

(١) شارلوت سيمور، موسوعة علم الإنسان، الطبعة الثانية، ترجمة مجموعة من الأساتذة بأشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص٩٩ 100-.
(٢) علي ثويني، مصدر سابق، ص ٥٥٠ .

والاجتماعي من مجالات الحياة اليومية للناس ولأنشطتهم، ويتعين على الباحث الميداني أن يكون قادراً على اتخاذ أوضاع في قلب المواقع والأحداث الرئيسة في حياة الناس لكي يلاحظها ويفهمها.

بحيث يستطيع ان يتعايش معايشة كاملة تلك الحياة الاخرى بكل اهتماماتها، من هنا قد يشارك في بعض الاحداث من دون حرص كبير، او من دون حرص اطلاقاً على ان يدون ما يراه، او حتى يلاحظه بطريقة محايدة فيها انفصال عما يجري، ولو ان الباحث الاثنوجرافي الذي يعيش في ميدان البحث وليس في مجرد زيارة خاصة في احدى الثقافات غير الغربية حيث لا تكون له ألفة باللغة وبإيقاع الحياة اليومية، هذا الباحث لا يكون امامه سوى المشاركة بشكل فوري.

الباحث في الميدان يمكن ايضاً ان يشارك في الاحداث التي تدور امامه بطرق تنطوي على الكتابة بشكل مباشر، ففي مثل هذه الحالات يحرص الباحث الحصول على مكان مناسب يستطيع منه ان يلاحظ الاحداث الطريفة والمهمة بوضوح بحيث يستطيع ان يسجلها على الورق تفضيلاً.

ونتيجة لهذا تكون المشاركة في الاحداث التي تتم بشكل طبيعي موجهة بوضوح نحو كتابة المذكرات الميدانية، وفي الحالات المتطرفة من هذا التوجه يقوم الباحث الميداني واعياً بملاحظة الاحداث والوقائع التي يتحتم وصفها لأغراض البحث، ولهذا يتخذ موقفاً من تلك الأحداث يمكنه من ان يلاحظ ويكتب، وقد يتبنى موقفاً واضحاً من الاحداث ممضمونه، ما هي الاشياء المهمة التي يمكن تذكرها والكتابة عنها لاحقاً.

مشهد وقت الصباح

في صبيحة يوم قارس والسماء ملبدة بالغيوم ترشق نث يرافقه هواء بارد وعطرٍ يُنعش القلب ويبعث في النفس الطمأنينة والارتياح، مشهدٍ لا نجده في كل المكانات اذ كان صوت القرآن ينبعث

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

من مآذن الضريح الباسقات وكأنه يخرق الحُجب بصوت تقشعر منه الأبدان لجماله وعذوبة صوته ولحنه، وانك لترى فيها القباب المغشّاة بالذهب المطروق، والمنائر المستقيمة النحيفة كأنها زهور السوسن، والابواب المزينة بالقاشاني البديع، وقد تلألأت القباب والمنائر وهي تلامس أشعة الشمس فتراها من بعيد متعالية بين باسقات النخل، ومع الهزيع الأخير من الليل، وقرب وقت آذان الفجر اذ ترى الزائرين متجهين نحو ضريح قد ضم بين ثناياه إمامان من أئمة المسلمين موسى بن جعفر ومحمد بن علي الجواد (عليهما السلام)، إذ يقصده الناس من كل حدب وصوب، لا تسمع لهم الا التسبيح والتهليل والصلوات بلغات ولهجات متعددة، قبل دخول الزائر الى الضريح يخلع نعليه او حذاءه في اماكن مخصصة لهذا الغرض وتسمى (الكشوانية[1]) عليها وتحيط الكشوانيات بكل مداخل الضريح وتكون مرقمة ليستدل الزائر على المكان الذي ترك فيه حذاءه وبما ان غالبية الزوار غرباء عن المدينة فعندما يترك حذاءه ياخذ قطعة صنعت من مادة البلاستك مدون عليها رقم الكشوانية ورقم مكان وضع الحذاء، واما العاملون عليها فهم يلبسون لباس الخدم ويتقاضون اجرا بسيطا لقاء هذه الخدمة والزائر غير ملزم باعطاء النقود فالمسألة كيفية وهذا نادر ما يحصل لان الحياء يغلب على الجميع وكان هؤلاء ينافسون الخدام باخذ النذور والهدايا من الزوار وخلسة بدون علم الخدام .

يدخلون الزائرين من ابواب الضريح المتعددة يتزاحمون فيما ليبلغوا صلاة الصبح لما لها من أجر وثواب اضافة الى الأجواء الروحية التي تبعث البهجة والطمأنينة، اذ يقف المصلين فى صفوف مستقيمة ومتساوية خلف إمامٍ واحد هو أعلمهم، ولا يوجد فرق بين بعضهم البعض فأكتافهم متلاحمه وأقدامهم

(١) هي كلمة وتعني مكان وضع الاحذية .

متلاصقه، ووجوههم متجهة إلى الله بالذلّ والخشوع إليه، ومن هنا تبدو لنا حكمة الله تعالى البالغة من هذه الجماعة، عندما يشعر كل إمرؤ بأنه عند ربه كسائر إخوانه لافرق بينهم ولا فضلٍ لأحد على أحد، فالحاكم بجوار المحكوم والقائدُ بجوار المقود، والغنيّ إلى جانب الفقير والخادم مع المخدوم، فالكل سواءً في هذا الموقف أمام الله، الكل يرجو عفو ربه ويطمع في رضاه، وإن تفاوتت بينهم الحظوظ في الحياة فهي من قبيل الإبتلاء وليس التفضيل، فيشعر كل فرد بالرضا والقناعة والتوافق النفسي والاجتماعي، واذ برجل يشق الصفوف عليه سيماء الانبياء وجهه كفلقة القمر مرتدياً صاية لونها اسود وتحتها ثوب او ما يُعرف بـ(الدشداشة) واضعاً على رأسه عمامة بيضاء[1]يسمى شيخ ويمشي الى جانبه بعض طلبة العلم الذين يرتدون الزي نفسه، والبعض منهم يرتدي الزي المدني بنطال وسترة وكأنهم من المقربين للشيخ او من الحماية، وقد وضعت سجادة الصلاة متجهة صوب القبلة واضعاً عليها تربة من الطين الخالص من ارض كربلاء والتربة الحسينية عبارة عن أقراص من الطين المجفف تأتي في أشكال مختلفة منها الدائري ومنها المربع ومنها ما هو على شكل معين هندسي ونصف دائري وكلها تحمل نقوشا مختلفة تمدح غالبا حفيد النبي محمد الإمام الحسين بن علي المدفون في مدينة كربلاء، لكن كلها مصنوعة من نفس الرمال المستخرجة من المكان الواقع على بعد مئة كيلومتر جنوبي بغداد حيث قُتل الإمام الحسين ومعظم رفاقه وكثير من آل بيته في القرن السابع عندما نهض الحسين في وجه الخليفة الأموي آنذاك يزيد بن معاوية، يؤمن الشيعة بعدم جواز السجود أثناء الصلاة إلا على الأرض من رمل وحجر وتراب وكذلك على ما تنبت

(١) -. العمامة البيضاء رمز لمن لم يكن منتمياً إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من ناحية الأب

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الأرض من غير المأكول ولا الملبوس، وأن السجود على الملابس والأقمشة والأفرشة من سجاد ونحوها وكذلك على المعادن من نحاس وفضة وذهب أمر غير جائز ويستندون بذلك إلى العديد من الأحاديث والمرويات عن النبي واهل بيته (عليهم السلام).

اذ يقف رجل قرب إمام الصلاة لينبه المصلين بحركات الامام من تكبيرة الإحرام والركوع والسجود وهو ينادي بصوت عالٍ بعد ان يؤدي الإقامة حتى يصل الى (قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله اكبر الله اكبر لا اله الا الله)، اذ يتهيأ الإمام للتوجه والنية ومن ثم الشروع في الصلاة، فينادي هذا الرجل بجانب الإمام الذي وظيفته تنبيه المصلين بحركات الإمام ليقول بصوت عالٍ (ساووا الصفوف يرحمنا ويرحمكم الله) بعدها يشرعوا بالصلاة، بعد الإنتهاء من فريضة الصبح الواجبة يشرع رجل بقراءة دعاء بعد فريضة صلاة الصبح عادة ما يقرأون تعقيبات الصلاة والادعية الواردة في كتب الادعية منها كتاب مفاتيح الجنان والدعاء الوارد فيه بعد صلاة الصبح (اَصْبَحْتُ اَللّهُمَّ مُعْتَصِماً بِذِمامِكَ الْمَنيعِ الَّذي لا يُطاوَلُ وَلا يُحاوَلُ مِنْ شَرِّ كُلِّ غاشِم وَطارِق مِنْ سائِرِ مَنْ خَلَقْتَ وَما خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ الصّامِتِ وَالنّاطِقِ في جُنَّة مِنْ كُلِّ مَخُوف بِلِباس سابِغَة وَلاءِ اَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكَ مُحْتَجِباً مِنْ كُلِّ قاصِد لي اِلى اَذِيَّة بِجِدار حَصين الْاِخْلاصِ فِي الْاِعْتِرافِ بِحَقِّهِمْ وَالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِهِمْ مُوقِناً اَنَّ الْحَقَّ لَهُمْ وَمَعَهُمْ وَفيهِمْ وَبِهِمْ اُوالي مَنْ والَوْا وَاُجانِبُ مَنْ جانَبُوا فَاَعِذْني اَللّهُمَّ بِهِمْ مِنْ شَرِّ كُلِّ ما اَتَّقيهِ يا عَظيمُ حَجَزْتُ الْاَعادِيَ عَنّي بِبَديعِ السَّمواتِ وَالْاَرْضِ اِنّا جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ اَيْديهِم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَاَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ) وغيرها من الأدعية الخاصة بهذه الفريضة.

بعدها يبدأ المصلين بالتوجه صوب ضريح الإمام (عليه السلام) يطلبوا حوائجهم ويسلموا على الإمام (عليه

السلام) ومن ثم مغادرة الضريح منهم من يذهب لعمله سواء كان موظف في العتبة الكاظمية او موظف في احدى دوائر الدولة او من الكسبة هذا في الايام التي لا يكون فيها عطلة كيوم الجمعة ويوم السبت، اما في يوم عطلة الاسبوع يكون الصحن مملوء بالزائرين يطلبون من الله بواسطة الإمامين (عليهم السلام) قضاء حوائجهم وهم متمسكين بضريح الإمامين (عليهم السلام) متزاحمين فيما بينهم ليبلغوا مكان يسع عدة امتار لقفص مستطيل الشكل على جوانبه شبابيك باهرات لامعات مكسوات بالذهب والفضة الخالصتان في داخله قبران للأئمة المسلمين الشيعة موسى بن جعفر وحفيده محمد بن علي الجواد (عليهم السلام) ليبلغوا ذلك القفص المذهب منهم من يقبله ومنهم واضع خده على عيه ومنهم من ماسكه بيديه ويبكي ويتضرع لله طالباً قضاء حوائجه.

وقفتُ على دكة داخل الصحن المقدس، اتأمل الحمام على قبته، واقبلت اشمّ العطر من بابه بجنون، ثم امسكت الشباك المبارك ودعوتُ ان يفك ضيقي دون ان يعتريني الارباك من كلماتي التي اقولها في رفقة من كان معي، فأنت يا سيدي احدى وسائل التقرب الى الله وانت من اولاد النبي «عليه وعلى آله افضل الصلاة والسلام» فحتماً ستكون من انبل الخلق.

ثم خرجت ثانية الى الصحن وجلست ناظرة الى راية خضراء مرفرفة على تلك القبة ذاتها التي تمنيت لو انني استطعت تقبيلها، في اثناء الافكار التي لازمتني منذ دخولي الحرم الشريف وتركيز عيناي على الراية الخضراء رأيت رجل يعتلي القبة من الخارج وبيده قطعة سوداء فادركت ان الوقت حان لتبديل راية براية وهذا ما يدعى «مراسيم تبديل الراية».

بعد ان انزل الرجل الراية الخضراء ووضع بمكانها الراية السوداء شعرت

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

وكأن شيئا فيّ توقف في محطة ما!.

فبدأت اتذكر امي حين سردت اليّ جزءا يسير جدا من حياته الشريفة قائلة:

اسمه موسى ابن جعفر الصادق «عليه السلام» وامه السيدة حميدة ابنة صاعد، اندلسية الاصل، وهي كانت على دراية من العلم والمعرفة والإيمان، وهو من احفاد النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

الجلوس في الصحن الكاظمي يجعل الإنسان مجبورا ان ينسى ما يشغله من حزن ووجع... ليرمي التعب بعيداً عن جثته التي انهكتها الحياة دون مبالاة، فكل كلام الحب والنقاء لن يستطيع وصف القليل من طيب وكرم هذا الإمام المعذب الذي حظي بكل الخصال الحسنة حيث لقب ايضا بـ«صاحب الكرامات» حيث انه لا يرد طالب حاجة ولايتركه خاوي الوفاض والكثير من الناس يذهبون الى مرقده الشريف للدعاء والطلب ويستنجدون بأسمه لله تعالى، وهكذا كان الإمام موسى ابن جعفر الصادق (عليهما السلام) قدوة للجميع ولكل من اراد ان يكظم غيظه.

رأيت الجمال رأيت العشق والأمان عند عتبة ضريحه شعرت بالراحة داخل هذه البقعة التي يعتبرها كل من يدخل اليها قطعة من الجنة .

غالباً ما يأخذها الزائر كهدية لأهله حين عودته من الزيارة، وقرب المرقد هناك أطفال يبيعون قطع قماش صغيرة بطول متر واحد خضراء اللون ليقوم الزائر بأخذها معه إلى داخل الضريح ومسحها بالشباك (وهو قفص القبر الشبكي داخل الضريح) وتعتبر قطعة مباركة و(«مزورة» بالعامية نسبة للزيارة) واللون الأخضر هو لون شبيه بلون الكوفية الذي يلف به «الأئمة» رؤوسهم في الصور المتخيله، ويقوم البعض برمي قطع القماش هذه فوق الشباك، بعدها يدعي الزائر طالبا حاجته عن بعد، أو الوصول للضريح والتمسح بقفص القبر باليد والدعاء لطلب الحاجة أو

المراد والتبرك [وتصلى ركعتين مستحبة وتهدى «للإمام» وتعتبر الصلاة قرب قبور الأولياء مستحبة جداً وأجرها عظيم واقرب إلى الله، ويقوم الزائرون بالتشبث بشباك القبر والبكاء والدعاء علامة على الخشوع.

خاتمة الدراسة

تتجه خاتمة الدراسة نحو تحديد او بيان التساؤلات التي تم عرضها في الفصول الأولى للدراسة لاسيما تلك المتعلقة بالبناء النظري للدراسة. ولأجل الوقوف بالنهاية على النتيجة التي خرجت بها الدراسة عند مناقشة الموضوع ومدى فاعليته على مستوى الدراسات الأكاديمية المهتمة بدراسة وتحليل الممارسات لدى مجتمع الدراسة على وفق المنهجية التي اتسمت بها الدراسة.

اذ يعتقد الناس ان اللجوء الى الإمامين (عليهم السلام) والذي يسمونه بـ(طبيب بغداد، وقاضي الحوائج) له قراءتين الأولى هي ان الزائر يلتمس العون والمساعدة من قبل ما يعتقد به وذلك للتخلص من ازماته ومشاكله في الحياة اليومية والجانب الثاني هو جانب ديني أي انه يعتقد بأن للإمام شأن عظيم عند الله، ان التوجه الى زيارة الإمامين (عليهم السلام) يُعّد جزء من عادات كثير من الناس وفي ايام محدودة وأوقات مخصوصة

هناك تغيرات طرأت على المعتقدات والطقوس أحدثت تغيراً في مظاهر الزيارة وطريقة طلب الحاجة وايفاء النذر نتيجة لتغيرات اثرت على كافة الجوانب الاجتماعية للمجتمع العراقي.

ان تمسك الناس بالإمامين (عليهم السلام) والمواظبة على زيارتهم وطلب الحاجات من قبل الناس، يُفسر المكانة الهامة الدينية والاجتماعية التي يحظى بها الإمامين (عليهم السلام) في المجتمع العراقي.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

مصادر الدراسة

١- جامعة السلطان قابوس، معجم أسماء العرب، ضمن سلسلة «موسوعة السلطان قابوس للأسماء العربية»، ط، الثانية، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ١٩٩١،.

٢- محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري، معجم لسان العرب، دار المعارف، المجلد السادس.

٣- البداية والنهاية لابن كثير ٢: ٢٤٣، السيرة النبوية لابن هشام ١: ٥٤، تفسير ابن كثير ٤: ٢٧١.

٤- احمد بن محمد المقرئ، المصباح في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان،١٩٨٧

٥- ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مجلد،٧.

٦- الحاج القدميري، مفهوم المقدس في الاديان السماوية والوضعية، المجلة العربية للنشر العلمي، العدد ٢٧،المغرب، ٢٠٢١.

٧- عبد الناصر سلطان محسن سلام، مفهوم المُقدس والمدنس عند ميرسيا الياد، دراسة نقدية تقييمية من وجهة نظر اسلامية، كلية المعارف والوحي والعلوم الانسانية، ماليزيا، ٢٠١٢.

٨- علي ثويني، معجم عماره الشعوب الإسلامية، الطبعة الاولى، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٥.

٩- شارلوت سيمور، موسوعة علم الإنسان، الطبعة الثانية، ترجمة مجموعة من الأساتذة بأشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩.